تمهيد
أهمية غزوة أُحد وقيمتها في التاريخ الإسلامي والعالمي

١ ـ بين بدر وأحد:

يقول أ/ شقرة: «لم يكد يمضي وقتٌ يسير على غزوة بدر حتى بدأت غزوة أُحد تفرضُ نتائجها على الفريقين فوق أرضٍ واقعةٍ تحت حماية المسلمين، أي أن المعركة فُرضت على المسلمين فوق أرضهم، وذلك له دلالته الكبيرة على التحدي الضخم الذي تَقَدَّم زحف المشركين إلى أرض المعركة، واستهانتهم بقوة المسلمين التي زعزعت قوتهم فوق أرض بدر، وهو يعني أن المُصاب الذي أوقعه الرسول ﷺ بالمشركين في بدر لم يبلغ منهم مبلغه، فسرعان ما عزموا الأمر، وحزموا التدبير، ونسوا مرارة الهزيمة، وصمموا على الثأر والنَّيْل من لبانة النصر الذي أحرزه المسلمون في بدر.

وإذا كانت غزوة بدر هي الفرقان الذي أعز الله به الإسلام وأذل به الكفر، والبداية التي انطلق منها الإسلام في الجزيرة، فإن غزوة أُحد كانت التجربة المُرَّة التي علَّمت المسلمين كيف ينبغي أن تكون طاعة الأمير في العُسر واليُسر، والدرس العظيم الخطير الذي لُقِّنوه فلا يُنسى على الدهر، وظلت ندامةٌ تؤرقهم في نومهم ويقظتهم يتحيَّنون كل فرصة للتخفف منها بالطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ امتثالًا وتحقيقًا في نفوسهم لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾[النور].

وتقف غزوة أُحد مع أُختها غزوة بدر على طريق الإسلام العظيم مَعْلَمَيْن كبيرين على شيئين قد يبدوان بادئ ذي بدء نقيضين، لكنهما في الحقيقة سواء، وينتهيان بالإنسان إلى غاية واحدة، وهي تربية الفرد المسلم في كل عصر على الخضوع الكامل لأمر الله المُنَزَّل على نبيه، هذان الشيئان هما:

أولًا: أن النصر لا يكون إلا مع الصبر والطاعة للأمير.

وثانيًا: أن الهزيمة حين تحيق بالجند قد تحمل في ثناياها معنًى من معاني النصر يدركه الجند بعد حين.

وتعرض سورة (آل عمران) للحديث عن غزوة أُحد في سبع وأربعين آية، بدءًا من آية ١٢١ وانتهاء بآية ١٦٨، وهذا العدد من الآيات يُشعر بمكانة هذه الغزوة وشرفِها عند الله الذي استحقت معه أن تُعرض هذا العرض ليظل قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

وقد وردت آيتان في هذا الحديث عن غزوة أُحد، هما: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾[آل عمران].

ويلوح لي ـ بنظر اجتهادي محض ـ أن في هاتين الآيتين تذكيرًا للنبي ﷺ بالنعمة الكبرى التي أصابها هو وأصحابه يوم بدر بما أحرزوه من نصر مؤزر على قريش، فما أوقعت قريشٌ وأشياعها يوم أُحد من أذى به وبأصحابه لا ينبغي أن يكون مُحزنًا له إلى الحد الذي يحمله على الدعاء عليهم أو اليأس من هداهم، فيذكرُهم دائمًا بذلك الأذى، فإن لله حكمة بالغة في ذلك لا يعلمها النبي ﷺ، فإن مذاق حلاوة النصر يُنسي مذاق مرارة الهزيمة، والعهد غير بعيد بينهما، فهو عام واحد وَفَّتْ قريشٌ بإنفاذ ما قالت بعدَه، وهذا النظر يُلمح إليه قوله سبحانه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران]، فجمعَ هنا بين نتيجتي الغزوتين، وقرن بينهما في موضع واحد من القرآن، وفي السورة الأولى من السورتين اللتين جاء ذكر الغزوتين فيهما، ذكر النتيجة الأولى وهي النصر الذي أصابوه في غزوة بدر، والنتيجة الثانية وهي المصاب الأليم الذي وقع بهم في غزوة أُحد، فإن حلاوة الأولى تُضعف مرارة الثانية، وهذا يحمل العقل على التأمل والنظر في الأشياء كلها، وتقدير نهاياتها، على أَحد النتيجتين، ولا يكون أحدهم أرجح من الآخر إلا بمقدار ما يكون من تحقيق لأسبابه، فيكون ذلك حافزًا نفسيًّا كبيرًا للمسلمين أن يستمسكوا بكل سبب يُفضي بهم ـ في إطار النظر الإيماني ـ إلى النتيجة الأولى في شبه يقين أو يقين». [السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٣٥٤-٣٥٧].

ويقول أ/ النجيري: «كانت غزوة بدر فرقانًا بين الحق والباطل، بين عهد الاستضعاف وعهد الظهور، بين الانتظار والتصبر والترقب والاستعداد، والمبادأة والقوة والمنازلة، وبها تميز معسكران للحق والباطل إيذانًا ببداية تغيير ثوري للبشرية، وظهور نور الحق على الخلق جميعًا، وتزعزع سلطان الوثنية والأهواء، وسقوط الطواغيت الأرضية، وهذا الاصطراع بين الحق والباطل لابد أن يوجد في كل مكان وزمان.

والدرس الأساسي الذي نتعلمه من بدر هو أن الحق ينتصر بقوة الإيمان لا بعدد ولا بعُدة، ونتعلم التوجه إلى الله تعالى في طلب النصر.

ويجب أن نستحضر في كل لقاء مع الباطل يكون فيه متغلبًا بعَدده وعُدده موقفَ النبي ﷺ وفي تلك الساعة الحاسمة حين «نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ [فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ]، وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا [ثَلاثُ مِائَةٍ وَنَيِّفٌ]، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ [وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ]، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ [إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ] هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ [أَبَدًا]**»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ [يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ ﷻ

وَيَدْعُوهُ] مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ [فَرَدَّاهُ]، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: **يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ**، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالمَلَائِكَةِ. [**مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، وأحمد عن عمر ﷺ (٢٠٣)**].

والحكمة من نصر أهل الإيمان على ضعفهم ومذلتهم هي أن يتقرر في عقيدتهم أن النصر بيد الله تعالى وحده فلا يتكلوا على سواه، ولا تتوجه القلوب لغيره، فالله ﷻ هو الذي ينتصر في الحقيقة، كما دعا نوح عليه السلام ربه ﷻ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وكقوله تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد ﷺ: ٤].

وهو يؤيد بنصره من يشاء لتظهر قضية التوحيد جلية حين يدرك أهل الإيمان أن لا حول لهم ولا قوة، وبعد أن يستنفدوا كل قواهم، ويبدو أن الباطل سينتصر ويستأصل شأفة أهل الحق، حينئذ يأتي تثبيت الله تعالى ونصره، كما بين سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، وكما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف].

وقد ظهر النفاق بعد بدر، وظل النبي ﷺ يتألف المنافقين عسى أن يصلح حالهم، ولكنهم نكثوا يوم أحد، وعملوا عملهم في تصدع الصف المسلم؛ لذلك كانت أُحُدُ فرقانًا بين الإيمان والنفاق، ومدخلًا حاسمًا لوضع قواعد صارمة لمعاملة المنافقين باعتبارهم مرض اجتماعي لابد من علاجه وعزله وتشتيته حتى لا يختلط بالحق، ويثبط الهمم، ويرهق النفوس.

وفي بدر كان استئصال قادة الشرك وسراته الذين كانوا يلمون الشعث الكفري بمكة، وبموتهم انفتح باب الاختيار الحر أمام كثير من القرشيين بلا سيطرة الرؤساء: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال].

على حين ميز ابتلاء أُحُد بين المؤمنين الصادقين ومن تابعهم من راغبي المغنم أو ضعاف النفوس حتى تتمحص القلوب والنيات لله، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد ﷺ].

فلابد أن تتمحص الجماعة المؤمنة ليدرك ثبات الرجال ومعادنهم، فمنهم من يتزلزل، ومَنْ يفر، ومَنْ يثبت.

وفي بدر وأُحُد نتعلم درس الشورى، فقد أخذ النبي ﷺ بمشورة حباب بن المنذر ﷺ في التقدم على بئر بدر حتى يكون من خلفهم فيمنعوا العدو ماءه فقد روي أنه ﷺ قال: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ**»[(١)]، حين كانوا بين خيارين بعد انفلات عير قريش منهم، فإما ملاقاة جيش مكة، أو الرجوع للمدينة، كما شاور المسلمين حين سمع بخروج قريش تريد المدينة: هل يخرج لملاقاتهم أم ينتظرون في المدينة؟

ونتعلم من ذلك أن الشورى لازمة لاستلهام الرأي الرشيد من الله تعالى، وهي سبب لتنزل النصرة ورفع البلاء.

كما نتعلم درس الطاعة للقائد والأمير وعدم مخالفة الأوامر أو التلهف على الغنائم أو إرادة الدنيا، فإحقاق الحق وقطع دابر الكافرين أكبر من الغنم العاجل أما إرادة الدنيا فهي ترفع النصرة، كما يرفعها ذهاب المودة والتآلف والتقوى من صفوف الجند المسلم، ويتأكد التحذير من اختلاف القلوب والآراء والمعاصي والجبن والتطلع إلى الدنيا؛ لأنها أسباب الفشل.

ويأتي درس الإخلاص والتجرد والطاعة والتناصح والتواد وإرادة وجه الله تعالى وحده، مع مراقبة خفايا النفوس ودقائق القلوب لتحقيق ما فيها من إرادات، والتفطن لتسويل الشيطان وصرفه لنياتنا إلى الدنيا والغنيمة، فالهدف هو إعلاء كلمة الله ﷻ فقط، وغير ذلك معناه نزول البلاء.

وفي بدر حين توحد المسلمون وأخلصت نياتهم كانت النصرات الغيبية وإمداد الله تعالى بالملائكة، أما في أحد حين فشل بعض الجيش، عمت الفوضى والانحسار، فلا يزيد الظالمون الصف إلا خسارًا.

ومن جانب آخر كانت محنة ظهرت فيها بطولات إيمانية نادرة وشجاعة عظيمة، وتضحيات كبيرة، وأكرم الله تعالى سبعين من المسلمين بالشهادة.

وفي النهاية، حين يعود الجيش على أية حال، منتصرًا أو مجروحًا، ينبغي أن تعفو القيادة، وأن تقدر التضحيات التي بُذلت، وأن تبشر بالخير والرضوان، وأن ما كان من جروح فبما كسبت القلوب، والله هو الغفور.

وقد تنزلت سورة الأنفال بكثير من الدروس للمؤمنين في حال لقاء الأعداء، ولكنهم لم يلتزموها حق الالتزام؛ لذا جاء ابتلاء أُحد حتى يُصلح المؤمنون من شأنهم ويراجعوا المنهج ويلتزموا توجيهاته، وأبرز هذه الدروس التي خولفت:

(١) **التجرد وإرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة**: وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾ [الأنفال].

(١) هو قطعة من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٢٦- ٤٢٧ من طريق بسام الصيرفي عن أبي الطفيل عن الحباب به، وقد ضعفه الذهبي في التلخيص.

فالهدف من القتال هو إحقاق الحق وإزهاق الباطل لا الغنائم؛ ولذا يقول جل شأنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال].

(٢) الثبات والاستعانة بالله ﷻ وبذكره والتصبر: يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال]، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[الأنفال].

(٣) الطاعة لله تعالى ولرسوله وللقيادة المسلمة: يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال]، ويقول أيضًا: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[الأنفال].

(٤) إدراك أن النعمة تتحول وتتبدل بالظلم والعصيان: وإن صدر ذلك من بعض المؤمنين، فالله يعاقبهم حتى يستقيموا مرة أخرى، ويبيِّن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال]، وقوله كذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[الأنفال]». [البلاء الإلهي للنجيري ٦-١٤].

٢ ـ غزوة أُحد مدرسة المسلمين والإنسانية:

تحت عنوان: «**بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحُد**» يقول الإمام ابن القيم: «وقد أشار اللهُ ﷻ إلى أُمهاتِها وأُصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ إلى تمام ستين آية.

فللَّهِ كم من حكمة في ضِمن هذه القِصة بالغةٍ، ونعمة على المؤمنين سابغةٍ، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشاد وتنبيه، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتها». [زاد المعاد ٣/ ١٩٦، ٢١٥].

ويقول الشيخ المدري: «عندما يقف المسلم ويُقلب صفحات غزوة أحد يجد أنَّ فيها سِفْرًا عظيمًا للدروس والعبر التي تقوِّم اعوجاج مسالكنا، وتحيي وتقوي ضعف إيماننا، وتثبت مواضع أقدامنا، وتكشف ما وراء المظاهر إلى حقائقها.

ولقد وصف القرآن هذه المعركة وصفًا دقيقًا، وسلَّط الضوء على خفايا النفوس، ودخائل القلوب، وكان فيها تربية للأمة في كل زمان ومكان، ودروسًا تتوارثها الأجيال تلو الأجيال.

غزوة أحد التي تعلم منها المسلمون أنه ينبغي أن تكون الشدائد والمحن في كل زمان فيصلًا لتمييز المؤمنين، وفضح المنافقين.

والتي فيها دروس للأمة جمعاء في حياتها ومعاملاتها، ولعل دروس النكبات والهزائم أعظم أثرًا من غيرها في كل وقت وحين.

غزوة أحد التي تركت آثارًا غائرة في نفس النبي ﷺ تلازمه حتى آخر حياته، ولما حانت وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطولة أن يودع قتلى أحد وأن يدعو الله لهم.

روى الشيخان في صحيحهما عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالْمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «**إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا**».

قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ. [**البخاري في المغازي (٤٠٤٢، ٤٠٨٥)، وفي الجنائز (١٣٤٤)، وفي المناقب (٣٥٩٦)، وفي الرقاق (٦٤٢٦، ٦٥٩٠)، ومسلم في الفضائل (٢٢٩٦)**].

إن مقارنة يسيرة بين حال الأمة في يومها وبين حالها يوم هزمت في معركة أحد وجعلت الهزيمة بسبب معصيتها ومخالفتها لرسولها توحي بأن الأمة اليوم لم تكمل أسباب النصر والتمكين التي وردت في كتاب الله تعالى، وإنما هي في غفلة معرضة، لم ترفع بالدين رأسًا في كثير من بقاعها وأصقاعها وفي كثير من أحوالها وأهوالها.

إن غزوة أحد من المعارك التي خاضها النبي ﷺ بنفسه، التي كانت محلًّا لأحداث كبار ودروس وعبر عظام، فهي فياضة بالعظات الغوالي، والمواعظ القيمة.

ومع ما وقع فيها من الكوارث والنكبات، وما حوته من النوازل والأزمات، إلا أنه يصدق فيها قوله تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [النور:١١]». [**غزوة أحد للمدري ٣-٤، ٧-٩**].

ويقول د/ زين السيد: «إن المعارك الإسلامية تُختبر فيها طبائع الرجال ويُمحص فيها المؤمنون ليميز الخبيث من الطيب، ولكن بِقَدْر ما يكون عليه الجند من ثقتهم في الله وإيمانهم به، والتفافهم حول قائدهم والتزامهم بأوامره وعدم التفريط فيها بقدر ما يكون النصر والغلبة، وبقدر ما يكون التفريط والخلاف لأوامر القائد بقدر ما تكون الهزيمة.

وقد كانت غزوة أُحد إحدى هذه المعارك التي خاض غمارها المسلمون ومروا فيها بتجربة قاسية كانت نتيجة للتصرف الفردي والجري وراء الغنائم والزهو بالانتصار المؤقت ومخالفة أوامر القائد، وقد

كانت فيها أحداث وأحداث ومواقف تستلفت النظر وتدعو إلى التأمل ومواطن للعظة والاعتبار، فهي من المعارك التي يجب أن نقف أمامها طويلًا لنستلهم من أحداثها العبرة والعظة، ونأخذ بما كان فيها من إيجابيات وجوانب مشرقة، ونتأسى بالبطولات الصامدة أمثال: حمزة بن عبد المطلب ﷺ أسد الله وأسد رسوله ﷺ، وأنس بن النضر، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي دجانة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهم، وغيرهم من البطولات التي ما زال التاريخ يتحدث عنها ويفخر بها، ونتلافى ما كان فيها من سلبيات كانت سببًا في هزيمة المسلمين بعد أن كان النصر لهم». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ٤٤].

ويقول الشيخ أبو خوات: «لئن كانت غزوة بدر نصرًا إلهيًّا يكاد يكون معجزة كاملة، حظ الإنسان فيها ضئيل، فإن غزوة أُحد كانت وستظل نشاطًا إنسانيًّا له أسبابه وأحداثه ونتائجه يُعتبر مدرسة تسير مع الإنسانية تعلمها الدروس التي تحتاج إليها في تاريخها الطويل.

ولقد سجل القرآن الكريم كثيرًا من أحداث «أُحد» ومواقعها في سورة آل عمران، مما يحكي قصة الغزوة في أسلوب يركز على العبرة والدرس بغرض التعليم والإفادة والتربية؛ لنستطيع ـ إذا كنا حقًّا مسلمين ـ أن نأخذ منها، وألا نقع في مثل ما وقع فيه المسلمون يومها مهما طال الزمن ومرت الأيام».

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٣١، ٦٠].

ويقول د/ البوطي: «تنطوي غزوة أُحد على دروس بالغة الأهمية للمسلمين في كل عصر، ولكأن الحكمة من وقوعها على الشكل الذي حدث، أن يتكون منها درس تطبيقي عملي، يُعلِّم المسلمين كيفية البلوغ إلى النصر في معاركهم مع العدو، وكيفية التحرز من مزالق الفشل والهزيمة».

[فقه السيرة للبوطي ١٨٨-١٨٩].

ويقول د/ فيض الله: «إن تكن غزوة أُحد مؤسفة بالنظر إلى نتائجها، وما أسفرت عنه من ضحايا ودماء زكية غالية، ما كانت لتراق جزاءً لأخطاء وقع فيها ضعيفو النفوس؛ فقد كانت غزوة غنية حافلة بالعظات والعبر، والمبادئ والتربية الإلهية، والدروس الهامة؛ ولذا تنزلت فيها آيات طويلة، تركت في المسلمين من الآثار والفوائد، أكثر مما تتركه الغنائم والأسلاب بعد النصر، وبقي اسم أُحد، محتفظًا بمكانه المرموق، ورصيده الوافر في قلوب المسلمين، وبقيت التعاليم الإلهية التي عمَّقت الإيمان، وثبَّتت الأحكام، وسمت بالنفوس المؤمنة، موصولة بأُحد الذي اتخذ بسببها بحق وصف المحبة المتبادلة: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**». [البخاري في الزكاة (١٤٨٢)، وفي الجهاد والسير (٢٨٨٩، ٢٨٩٣)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٦٧)، وفي المغازي (٤٠٨٣، ٤٠٨٤، ٤٤٢٢)، وفي الأطعمة (٥٤٢٥)، وفي الدعوات (٦٣٦٣)، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٣٣)، ومسلم في الحج (١٣٦٥، ١٣٩٢، ١٣٩٣)، والترمذي في المناقب (٣٩٢٢)، وابن ماجه في المناسك (٣١١٥)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٨٢٤٥)، وعن أنس ﷺ (١٢٠١٣، ١٢١٠١، ١٢٢٠٥، ١٣١١٣، ١٣١٣٦)، وعن سويد الأنصاري ﷺ (١٥٢٣٢)، وعن أبي حميد الساعدي ﷺ (٢٣٠٩٣)، والموطأ (١٦٤٥)]. [صور وعبر لفيض الله ١٢٢].

ويقول د/ أبو خليل: «هُزمت قريش ببدر، فسارت في شوال السنة الثالثة للهجرة، باتجاه المدينة المنوَّرة تريد ثأرها، فكانت غزوة أُحُد، وكان خطأ الرماة الذي قرر مصير المعركة.

وفي حياة رسول الله ﷺ حدثان متميِّزان، أُحُد، وحُنين.

ففي أُحُد وقع خطأ فني حربي مادي، عندما خالف الرماة الأمر العسكري.

وفي حُنين وقع خطأ أخلاقي معنوي تربوي، عندما قال بعض المسلمين: «**لن نُغْلبَ اليومَ عن قِلَّة**».

وإن كنا ندع الحديث عن حُنَين إلى حينه، فإننا نقول: في أُحُد ما أخطأ رسول الله ﷺ، بل أخطأ الرماة، في اجتهاد خاطئ، فَسبَّبُوا ما سبَّبوا، تركوا النصَّ، وهو أمر رسول الله ﷺ الذي لا يحتمل التأويل، إلى التحليل والتأويل: فوقعوا في المخالفة.

ومع ذلك لم تحقق قريش ما أرادت، على الرغم من الخطأ الفادح المُرْتكب، والذي ساق إليها النصر، وهي المهزومة المندحرة.

فإن أرادت ثأرًا لقتلاها ببدر، فقد حققت مطلبًا.

وإن أرادت استعادةً لهيبة أو سمعة مهدورة، فقد حققت ذلك إلى أجل.

ولكن إن أرادت الأمر الأهم الأعظم، ألا وهو القضاء على المسلمين، والقضاء على رسول الله ﷺ لتستطيع فتح طريق تجارتها إلى الشام فهذا ما لم تستطع تحقيقه.

وفي غزوة أُحد دفع المسلمون ثمن مخالفة أمر رسول الله ﷺ، كما كشفت أُحد مدى استعدادات المسلمين المادية والروحية.

في أُحد منع الله ﷻ النصر عن المسلمين؛ كي لا تتعلَّق القلوب بغير الله، فخطأ واحد مع كل الفضائل المجتمعة، ما حال دون العقوبة والجزاء.

فكانت أُحد درسًا مؤثِّرًا، عمَّق الإيمان، مع خالص الحب والطاعة لرسول الله ﷺ، ففازوا بكامل الإيمان، فجاء النصر الدائم المستمر، حتى فتح الله عليهم مكة المكرمة.

أُحُد، امتحان واختبار، لا ليعلم الله النتيجة، فعلمه سبحانه سابق، الامتحان والاختبار ليعلم المسلمون أنفسهم، فكانت أُحُد ونتائجها عملية طهارة وتزكية، وعودة إلى سلامة النفس، وطهارة القلب.

اختبار أُحُد ليعرف المسلمون مراحل إيمانهم، وإلى أيَّة مرحلة وصلوا، فمن آثر الآخرة على الدنيا ومغانمها، ازداد إيمانًا وعُلُوًّا، ومن آثر الدنيا ومغانمها على الآخرة، استدرك، ولحق بعد أُحُد بمن آثر الآخرة على الدنيا.

وفي أُحُد كان بإمكان رسول الله ﷺ، وبمدد إلهي، أن يهزم قريشًا بحفنة تراب، ولو فعل، لبَطُل الجهاد، لقول من بعده ﷺ: ونحن بحاجة إلى حفنة تراب؛ لنهزم الأعداء، ولا وجود لتلك اليد التي ترمي هذه الحفنة: إذن.. فلا جهاد.

أُحُد لبنة في استكمال بناء الشخصيَّة الإسلامية، وتأكيد على أن الإسلام ـ مع الأحكام ـ عمل قلبي، وتذوُّق وجداني، وشعور روحي، وطاعة تامة، والتزام كامل لا يقبل شائبة أو مخالفة.

وبعد المخالفة، جاء العزاء من الله سبحانه، مع عفوه، للمسلمين، فكان تضميدًا للجراح، وتبديلًا للنفوس من الوهن إلى القوة، ومن اليأس إلى الأمل، فانتقلوا إلى حمراء الأسد يحمل بعضهم بعضًا، فكأنما أحياهم بعد موت، وأوجدهم بعد عدم.

إلى حمراء الأسد كي لا يظن العدو أن المسلمين قد انهزموا نفسيًّا، أو معنويًّا، أو قلبيًّا، ومع أنهم لا يستطيعون المشي من كثرة جراحاتهم، حَمَلَهم إيمانهم لا أبدانهم، وحملهم يقينهم لا صحتهم وأجسامهم.

وبذلك الإيمان، وبهذا اليقين، ما قالوا: نحن جرحى، فكيف المسير إلى حمراء الأسد بعد يوم واحد من غزوة أُحد! وما وقع في نفوسهم عدم صلاحهم للقتال، وقال ﷺ: «**وألا يخرجنَّ معنا أحَدٌ إلا من حضر يومنا بالأمس**»، فرفض ﷺ بذلك الجنديَّ سليمَ الجَسدِ مريضَ القلب، وقَبِل الجنديَّ جريحَ الجسدِ مُعافى الإيمان، صحيحَ القلب، فساروا وجراحاتهم في صدورهم وليست في ظهورهم، واستجابوا بعد أن مسَّهم القرح.

وعلى الرغم مما جرى في غزوة أحد، تجلَّت عظمة رسول الله ﷺ فيها:

ـ في فَرْضه ميدان المعركة على قريش.

ـ وفي إحرازه النصر سريعًا قبل مخالفة الرماة.

ـ وفي فكِّه الطوق الذي فُرِض على المسلمين، والذي كان كافيًا لإفناء جيش بكامله.

ـ وفي يأس قريش من القضاء على المسلمين، بعد أن كان فناؤهم أمرًا ممكنًا سهلًا، يحققّه جيش أقل عددًا من جيش قريش.

لقد كان رسول الله ﷺ قائدًا فذًّا، جنَّب جُنْده الخطر المحقَّق بمهارة وحنكة، وأعاد لهم هيبتهم بعد يوم واحد فقط بمناورته الرائعة إلى حمراء الأسد، فانسحب أبو سفيان ومَنْ معه مكتفيًا بصورة فوز، وسمعة انتصار، لن ينال مثلها مطلقًا، وسيفتح الله على نبيِّه، وسيدخل مكة، لا ليذل قريشًا، ولا لكي يحطِّم كبرياءها، لا.. فبعد أُحُد استغفر لقريش قائلًا: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**»، ولما أراد أبو قتادة الأنصاري ﷺ التمثيل من قريش؛ لِـمَا رَأَى مِنْ الْمُثْلَةِ بِالْمُسْلِمِينَ، ولِـمَا رَأَى مِنْ غَمِّ رَسُولِ اللهِ

ﷺ فِي قَتْلِ حَمْزَةَ ﷺ وَمَا مُثِّلَ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أَبَا قَتَادَةَ، إِنَّ قُرَيْشًا أَهْلُ أَمَانَةٍ، مَنْ بَغَاهُمُ الْعَوَائِرَ كَبَّهُ اللهُ لِفِيهِ، وَعَسَى إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ أَنْ تَحْقِرَ عَمَلَكَ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَعَالَكَ مَعَ فَعَالِهِمْ، لَوْلَا أَنْ تَبْطَرَ قُرَيْشٌ لَأَخْبَرْتُهَا بِمَا لَهَا عِنْدَ الله**».

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ﷺ: **وَاللهِ يَا رَسُولَ الله، مَا غَضِبْتُ إِلَّا لله وَلِرَسُولِهِ حِينَ نَالُوا مِنْهُ مَا نَالُوا.**

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**صَدَقْتَ، بِئْسَ الْقَوْمُ كَانُوا لِنَبِيِّهِمْ**».

[المغازي للواقدي ١/ ٢٩٠-٢٩١، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٢٣٠].

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، لقد كنت رائعًا في جهادك، ورائعًا في مجال التربية والأخلاق والمحبة.

لقد انتصرتَ على التخلُّف فَحَلَّ التقدمُ.

وانتصرتَ على الذل فَحَلَّت العزةُ.

وانتصرتَ على الجهل فَحَلَّ العلمُ.

وانتصرتَ على الشرك والأصنام فَحَلَّ الإسلامُ والإيمانُ.

وانتصرتَ على القبلية والعصبية فحل التوحُّدُ والوئامُ والإخاءُ.

جئتَ ـ صلى الله عليك ـ فأطفأت عداوة العرب وعشائريتهم وشتاتهم، وأضأت نور المحبة بين القلوب، فقامت مجتمعة للهداية والتحرير.

اللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبيًّا أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرسالة». [غزوة أُحد لأبي خليل ٧-١٢].

ويقول الشيخ/ كشك: «تحدثت سورة آل عمران عن غزوة أُحد من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران]، فهذه ستون آية تناولت غزوة أُحد بكل ما فيها من دروس وعبر، والواقع أن هذه الغزوة مدرسة عظمى من مدارس التاريخ، كان من أهم دروسها درس التمحيص، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

نعم كان لابد من أُحد؛ ولذا كان الرسول ﷺ إذا مر بهذا الجبل يقول: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**».

[سبق تخريجه].

ولقد وقف الرسول ﷺ على هذا الجبل ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ، فارتج الجبل، فقال له الصادق المعصوم وهو ينظر من وراء الحجب ويستشف الغيوب بوحي من علام الغيوب، قال له:

«اثْبُتْ أُحُدُ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ». [البخاري في المناقب (٣٦٧٥، ٣٦٨٦)، وأبو داود في السنة (٤٦٥١)، والترمذي في المناقب (٣٦٩٧)، وأحمد عن سهل بن سعد ﷺ (٢٢٣٠٤)].

وكان ما قاله الرسول ﷺ حقًّا...

نعم كان لابد من أُحد في حياة المسلمين حتى يميز الله الخبيث من الطيب، قال ﷻ في هذه الآيات التي نزلت في أُحد: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، لقد كانت غزوة أُحد بوتقة انصهرت فيها المعادن، وأعني بها معادن الرجال، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الرعد: ١٧].

إن الشدائد هي مقياس الصمود والوفاء ومقادير الرجال:

جَزَى اللهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[آل عمران].

إن التضحية بالروح شيء يهون على أصحاب العقائد المؤمنين بالشهادة، وهذا ما قرره الله تعالى في قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، فإنهم إذا صمتت الألسنة، ونطقت الأسنة، وخطبت السيوف على منابر الرقاب، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب، فلا ترى إلا رؤوسًا تُنثر، ودماءً تهدر.

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وضجت صدور العاديات ضبحًا، فرأيتَ الميدان حركة دائبة متواصلة وصفها القرآن الكريم أدق وصف في قوله جل شأنه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾[العاديات]، إذا كان ذلك كذلك فإن المؤمنين يشتاقون إلى الجنة أكثر من اشتياق الجنة إليهم، فترخص أرواحهم في أسواق الموت، ويتلقون ضربات السيوف كأنها قُبُلات الملائكة.

وإذا كانت غزوة أُحد قد غربلت القلوب، ونخلت الرجال نخلًا، فقد سبق أن حدثنا الكتاب العزيز عن الملأ من بني إسرائيل، الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وقال فيهم: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٩]، وقال في حق المؤمنين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وجاء ذلك ردًّا على الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وهكذا صمدت القلة أمام الكثرة الجالوتية، فكانت النتيجة أن القلة المؤمنة هزمت الكثرة الباغية الطاغية، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا

بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة]». [في رحاب التفسير لكشك ٤/ ٦٦٩-٦٧٠].

٣ ـ الموازنة بين الجيشين بين «بدر وأحد»:

يقول د/ أبو فرحة: «لئن كانت غزوة بدر صفحة من كتاب الكون، فيها نصرٌ للمؤمنين وهزيمة ماحقة للكافرين، صفحة مبهجة تجلَّت فيها عناية الله بجنده، ونصره لهم على عدوه نصرًا مؤزرًا.

فإن غزوة أُحد صفحة أخرى منه لا تقل وضاءة عن سابقتها عند التحقيق والتدقيق كما سيأتي، تجلت فيها عناية الله بجنده على نحو آخر، هو نصره لهم على أنفسهم بتهذيبها وتنقيتها وسبكها وصقلها، وتعليمهم من سنن الله ما لم يكونوا يعلمون، وتثبيت ذلك في أنفسهم بوقوعه أحداثًا ترتبت عليها آثارها ليكون الدرس أبقى وأخلد.

فلا غنى للمسلمين عن هذه وتلك، لا غنى لهم عن بدر وبهجة صفحتها وإشراقها، كما وأنه لا غنى لهم عن أحد ومس حرها، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الأنبياء].

وإنه ليبدو بالتأمل السريع، والنظرة الخاطفة مدى ما بين الغزوتين من تكامل، وما فيهما من تقابل، لا يجمع بينهما إلا إرادة الله ـ بهما معًا الخير كل الخير للمؤمنين وإن اختلف وجهه، فبدا سافرًا حينًا ومقنعًا حينًا آخر.

وهذه نقاط موجزة لتوضيح ذلك:

أولًا: في بدر كان المشركون مختلفين حول الخروج مترددين، وفي أُحد كان المسلمون هم المختلفون المترددون في الخروج.

ثانيًا: في بدر كان المشركون بين مستهين بالمسلمين لا يأخذ حذره، وخائف منهم لا يجتمع له أمره بسبب ما بلغهم من إنذار الرسول ﷺ لهم بأنه قاتِلٌ فلانًا وفلانًا منهم، وما شاهده بعضهم من رؤى مثبطة منها رؤيا عاتكة ورؤيا جهيم بن الصلت.

تركت هذه الرؤى بالإضافة إلى إنذار الرسول ﷺ في المشركين أثرها، فكانوا بين مستهين بالمسلمين لا يأخذ حذره؛ لما يعلمه من قلة عددهم، ولعدم ثقته في هذه الرؤى، وتلك الإنذارات، وبين خائف لا يجتمع له أمره بسببها.

وفي أُحد أخذ المسلمون حالة المشركين يوم بدر، فكانوا بين مستهين بالمشركين لا يأخذ حذره، وخائف لا يجتمع له أمره بسبب ما سمعوه من الرسول ﷺ من نبوءات باستشهاد عدد منهم، كما جاء في تأويل رؤيته ﷺ، تلك التي رآها قبيل غزوة أُحد، وما شاهده بعضهم من رؤى مشيرة إلى استشهادهم منها رؤيا عبد الله بن حرام رضي الله عنه.

وقد رواها البخاري بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: لَـمَّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعَانِي أَبِي مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ: **مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ** ﷺ. [البخاري في الجنائز (١٣٥١)].

وقد ذَكَرَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنِ الْوَاقِدِيِّ أَنَّ سَبَبَ ظَنِّهِ ذَلِكَ مَنَامٌ رَآهُ، أَنَّهُ رَأَى مُبَشِّرَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ رضي الله عنه ـ وَكَانَ مِمَّنِ اسْتُشْهِدَ بِبَدْرٍ ـ يَقُولُ لَهُ: أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، فَقَصَّهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**هَذِهِ الشَّهَادَةُ**». [فتح الباري ٣/ ٤٥٨ - ٤٥٩].

وبذلك يتضح بجلاء أن المسلمين والمشركين قد تبادلوا الحالات النفسية بين بدر وأُحد؛ ليترتب على كل حالة أثرها.

ثالثًا: فيهما معًا منَّ الله على المسلمين بالنعاس أَمَنَة منه، يشير إلى النعاس بيوم بدر بقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾[الأنفال: ١١]، ويشير إليه يوم أحد بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾[آل عمران: ١٥٤].

رابعًا: في بدر رجع الأخنس ببني زهرة، فأحدث رجوع الأخنس ولا شك في صفوف المشركين وهنًا، يهيئهم لما أعده الله لهم من هزيمة.

وفي أُحد رجع ابن أبي بمن معه وهم قرابة ثلث الجيش، فأحدث انسحابه ـ كما سيأتي ـ هزة في صفوف المسلمين، كادت تؤدي إلى انسحاب طائفتين أخريين من المؤمنين، وذلك أيضًا، كان تهيئة لحرمانهم مما أعده الله للمؤمنين من جزيل المثوبة على ما يصيبهم من البلاء، وما يريد أن يخصهم به من اتخاذ الشهداء منهم دون سواهم: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[آل عمران]، كما كان ليتميز به المؤمنون من المنافقين.

خامسًا: في كل منهما كان الشيطان يبدو مساعدًا للمشركين، وكانت الملائكة تقوم بدورها في مساعدة المسلمين، فلم يكن المشركون وحدهم، وكذلك لم يكن المسلمون وحدهم، ولكن شتان بين نصير ونصير، كما وأنه شتان بين جند وجند.

تلك نقاط موجزة، وضَّحَتْ لنا كما قلت سابقًا، مدى ما بين الغزوتين من تكامل وما فيها من تقابل، كما وضحتْ لنا مدى ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها.

ففي بدر حيث كان الكفار مختلفين حول الخروج مترددين، وكانوا بين مستهين بالمسلمين لا يأخذ حذره، وخائف منهم لا يجتمع له أمره، مما ترتب عليه عدم اتحاد كلمتهم وانسحاب الأخنس ببني زهرة.

نزلت بهم الهزيمة، كنتيجة حتمية لتلك المقدمات.

وفي أُحد حيث تبادل الفريقان أحوالهم، فبينما اتحدت كلمة المشركين وأخذوا حذرهم وخرجوا نصب أعينهم الثأر من المسلمين، مهما كلفهم ذلك نجد المسلمين يختلفون في الخروج، ويجمعون في صفوفهم بين مستهين بالمشركين لا يأخذ حذره منهم وخائف منهم لا يجتمع له أمره، كما أنه قد انسحب عبد الله بن أُبي بثلث الجيش، وبذا يكون المسلمون قد جمعوا بين الكثير من عوامل هزيمة المشركين يوم بدر، فلا عجب إذا ترتبت عليها نتائجها من بلاء نزل بالمسلمين يومئذ.

وهكذا ترتبط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، أشد الارتباط وأحكمه:

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[النمل].

هذه «غزوة أحد» كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرته العطرة.

تاريخ لا كالتواريخ، فليست أحداثها فارغة من المعاني، وخلوًّا من العبر، إلا في أضيق الحدود، شأن تواريخ الملوك وأشباههم.

لا، بل هي في حقيقتها قد ابتدعت أحداثها لتستوعب من المعاني أعلاها، ومن العبر أدقها؛ لتبقى من بعد مخلدة في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، عظة واعظة وعبرة معبرة، ودرسًا ربانيًّا كريمًا.

إن كنت في شك من هذا، فما بال كتاب الله يتناولها من نواحيها بهذه الإطالة، في الحديث عنها بالحديث والتعليل والمقارنة والتوجيه، وما بال سنة سيدنا رسول الله ﷺ تخصها بحشد هائل من الأحاديث النبوية الشريفة.

اللهم إن في هذا لأعظم دليل على ما قلت». [غزوة أُحد لأبي فرحة ٢٩٠-٢٩٧].

٤ ـ امتحان ثقيل الوطأة:

يقول الشيخ الغزالي: «موقعة «أحد» فياضة بالعظات الغوالي والدروس القيمة، وقد نزلت في أدوارها وحوادثها ونتائجها آيات طوال، وكان لها في نفس الرسول ﷺ أثر عميق، ظل يذكره إلى قبيل وفاته، كانت امتحانًا ثقيل الوطأة، محَّص السرائر، ومزَّق النقاب عن مخبوئها، فامتاز النفاق عن الإيمان، بل تميَّزت مراتب الإيمان نفسه، فعُرف الذين ركلوا الدنيا بنعالهم فلم يعرِّجوا على مطمع من مطامعها، والذين مالوا إليها بعض الميل، فنشأ عن أطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروِّعة.

بدأت المعركة بانسحاب ابن أبي، وهو عمل ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام وغدر به في أحرج الظروف، وتلك أبرز خسائس النفاق.

والدعوات ـ إبَّان امتدادها وانتصارها ـ تغري الكثيرين بالانضواء تحت لوائها، فيختلط المخلص بالمغرض، والأصيل بالدخيل، وهذا الاختلاط مضرٌّ أكبر الضرر بسير الرسالات الكبيرة وإنتاجها.

ومن مصلحتها الأولى أن تُصاب برجَّات عنيفة، تعزل خبثها عنها، وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التمحيص في أحد: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن تعلن عن نفاقهم السماء.

فإذا تجاوزت السفوح التي يدبُّ عليها أولئك المنافقون، وثبت إلى ذرى شامخة للإيمان البعيد الغور، النقي العنصر، يتمثل في مرحلة الهجوم المظفر الذي ابتدأ به القتال، ثم في مرحلة الدفاع النبيل الهائل الذي حمل المسلمون عبئه عند ما ارتدت الكرة للمشركين، ورجحت كفتهم.

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم، ويوجِّهون زمامه بعزماتهم، هم الذين صلوا هذه الحرب، وحافظوا بها مصير الإسلام في الأرض». [فقه السيرة للغزالي ٢٦٥-٢٦٦ ط دار القلم].

٥ ـ معركة في الميدان والضمير:

يقول صاحب الظلال: «من معركة الجدل والمناظرة، والبيان والتنوير، والتوجيه والتحذير ـ فيما سبق من سورة آل عمران ـ ينتقل السياق إلى المعركة في الميدان: معركة أُحد.

وغزوة أُحد لم تكن معركة في الميدان وحده، إنما كانت معركة كذلك في الضمير، كانت معركة ميدانها أوسع الميادين؛ لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانبًا واحدًا من ميدانها الهائل الذي دارت فيه: ميدان النفس البشرية، وتصوراتها ومشاعرها، وأطماعها وشهواتها، ودوافعها وكوابحها، على العموم، وكان القرآن هناك يعالج هذه النفس بألطف وأعمق، وبأفعل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزال!

الانتصار الكبير: وكان النصر أولًا، وكانت الهزيمة ثانيًا، وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة، انتصار المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة للحقائق التي جلَّاها القرآن، واستقرار المشاعر على هذه الحقائق استقرار اليقين، وتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، وانطلاق الجماعة المسلمة ـ بعد ذلك ـ متحررة من كثير من غبش التصور، وتميع القيم، وتأرجح المشاعر، في الصف المسلم، وذلك بتميز المنافقين في الصف إلى حد كبير، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق، في القول والفعل، وفي الشعور

والسلوك، ووضوح تكاليف الإيمان، وتكاليف الدعوة إليه، والحركة به، ومقتضيات ذلك كله من الاستعداد بالمعرفة، والاستعداد بالتجرد، والاستعداد بالتنظيم، والتزام الطاعة والاتباع بعد هذا كله، والتوكل على الله وحده، في كل خطوة من خطوات الطريق، ورد الأمر إلى الله وحده في النصر والهزيمة، وفي الموت والحياة، وفي كل أمر وفي كل اتجاه.

حصيلة ضخمة: وكانت هذه الحصيلة الضخمة التي استقرت في الجماعة المسلمة من وراء الأحداث، ومن وراء التوجيهات القرآنية بعد الأحداث، أكبر وأخطر ـ بما لا يُقاس ـ من حصيلة النصر والغنيمة، لو عاد المسلمون من الغزوة بالنصر والغنيمة.

وقد كانت الجماعة المسلمة إذ ذاك أحوج ما تكون لهذه الحصيلة الضخمة، كانت أحوج إليها ألف مرة من حصيلة النصر والغنيمة، وكان الرصيد الباقي منها للأمة المسلمة في كل جيل أهم وأبقى كذلك من حصيلة النصر والغنيمة.

وكان تدبير الله العلوي من وراء ما بدا في الموقعة من ظواهر النقص والضعف والتميع والغبش في الصف المسلم، ومن وراء الهزيمة التي نشأت عن هذه الظواهر.

كان تدبير الله العلوي من وراء هذا الذي وقع وفق سنة الله الجارية، حسب أسبابه الطبيعية الظاهرة، تدبيرًا كله الخير للجماعة المسلمة في ذلك الحين؛ لتنال هذه الحصيلة الضخمة من العبرة والتربية، والوعي والنضج، والتمحيص والتميز، والتنسيق والتنظيم.

وليبقى للأمة المسلمة في أجيالها المتعاقبة هذا الرصيد من التجارب والحقائق والتوجيهات التي لا تُقدر بثمن، ولو كان هذا الثمن هو النصر والغنيمة!

الميدان الحقيقي: لقد انتهت المعركة في ميدان الأرض، ليبدأها القرآن في ميدانها الأكبر: ميدان النفس، وميدان الحياة الشاملة للجماعة المسلمة، وصنع بهذه الجماعة ما تصنعه يد الله، عن علم وعن حكمة، وعن خبرة، وعن بصيرة، وكان ما شاءه الله وما دبره، وكان فيه الخير العظيم، من وراء الضر والأذى والابتلاء الشاق المرير.

التعقيب القرآني العجيب: ولعل مما يلفت النظر في التعقيب القرآني على أحداث المعركة هو ذلك الازدواج العجيب بين استعراض مشاهدها ووقائعها، والتوجيهات المباشرة على هذه المشاهد والوقائع، وبين التوجيهات الأخرى المتعلقة بتصفية النفوس، وتخليصها من غبش التصور، وتحريرها من ربقة الشهوات، وثقلة المطامع، وظلام الأحقاد، وظلمة الخطيئة، وضعف الحرص والشح، والرغبات الدفينة.

ولعل مما يلفت النظر أكثر، الكلام ـ في صدد التعقيب على معركة حربية ـ عن الربا والنهي عنه، وعن الشورى والأخذ بها، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية في النتائج السيئة للمعركة!

ثم.. سعة المساحة التي يعمل فيها المنهج القرآني في النفس البشرية، وفي الحياة الإنسانية، وتعدد نقط الحركة فيها، وتداخلها، وتكاملها العجيب..

حقيقة المعركة الكبرى: ولكن الذين يدركون طبيعة هذا المنهج الرباني لا يعجبون لشيء من ذلك الازدواج وهذه السعة، وهذا التداخل، وهذا التكامل، فالمعركة الحربية في الحركة الإسلامية ليست معركة أسلحة وخيل ورجال وعدة وعتاد، وتدبير حربي فحسب، فهذه المعركة الجزئية ليست منعزلة عن المعركة الكبرى في عالم الضمير، وعالم التنظيم الاجتماعي للجماعة المسلمة، إنها ذات ارتباط وثيق بصفاء ذلك الضمير، وخلوصه، وتجرده، وتحرره من الأوهاق والقيود التي تطمس على شفافيته، وتقعد به دون الفرار إلى الله!

وكذلك هي ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التي تقوم عليها حياة الجماعة المسلمة، وفق منهج الله القويم، المنهج الذي يقوم على الشورى في الحياة كلها ـ لا في نظام الحكم وحده ـ وعلى النظام التعاوني لا النظام الربوي، والتعاون والربا لا يجتمعان في نظام!

في ميدان الحياة الواقعية: والقرآن كان يعالج الجماعة المسلمة، على إثر معركة لم تكن ـ كما قلنا ـ معركة في ميدان القتال وحده، إنما كانت معركة في الميدان الأكبر: ميدان النفس البشرية، وميدان الحياة الواقعية، ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه، وعرج على الإنفاق في السراء والضراء فحض عليه، وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة، وعرج على كظم الغيظ والعفو عن الناس، وعلى الإحسان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار، والتوبة وعدم الإصرار، فجعلها كلها مناط الرضوان، كما عرج على رحمة الله المتمثلة في رحمة الرسول ﷺ ولين قلبه للناس، وعلى مبدأ الشورى وتقريره في أحرج الأوقات، وعلى الأمانة التي تمنع الغلول، وعلى البذل والتحذير من البخل في نهاية ما نزل في التعقيب على الغزوة من آيات..

عرج على هذا كله؛ لأنه مادة إعداد الجماعة المسلمة للمعركة في نطاقها الواسع، الذي يتضمن المعركة الحربية في إطاره ولا يقتصر عليها، معركة التعبئة الكاملة للانتصار الكبير، الانتصار على النفس والشهوات والمطامع والأحقاد، والانتصار في تقرير القيم والأوضاع السليمة لحياة الجماعة الشاملة.

وعرج على هذا كله ليشير إلى وحدة هذه العقيدة في مواجهة الكينونة البشرية ونشاطها كله، ورده كله إلى محور واحد: محور العبادة لله، والعبودية له، والتوجه إليه في حساسية وتقوى، وإلى وحدة منهج الله في الهيمنة على الكينونة البشرية كلها، في كل حال من أحوالها، وإلى الترابط بين جميع هذه الأحوال في ظل هذا المنهج، وإلى وحدة النتائج النهائية للنشاط الإنساني كله، وتأثير كل حركة من حركات النفس، وكل جزئية من جزئيات التنظيم في هذه النتائج النهائية.

وإذن فهذه التوجيهات الشاملة ليست بمعزل عن المعركة، فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية، والذين تولوا يوم التقى الجمعان في «أحد»: إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب، والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب، والالتجاء إلى الله، والالتصاق بركنه الركين، والتطهر من الذنوب إذن والالتصاق بالله، والرجوع إلى كنفه من عدة النصر، وليست بمعزل عن الميدان! واطراح النظام الربوي إلى النظام التعاوني من عدة النصر، والمجتمع التعاوني أقرب إلى النصر من المجتمع الربوي، وكظم الغيظ والعفو عن الناس من عدة النصر، فالسيطرة على النفس قوة من قوى المعركة، والتضامن والتواد في المجتمع المتسامح قوة ذات فاعلية كذلك.

حقيقة قدر الله: كذلك كان من الحقائق التي اتكأ عليها السياق من بدئه إلى نهايته، حقيقة قَدَرِ الله، ورد الأمر إليه جُملة، وتصحيح التصور في هذه النقطة تصحيحًا حاسمًا جازمًا.

وفي الوقت ذاته تقرير سنة الله في ترتيب العواقب التي تحل بالبشر على ما يصدر من سعيهم ونشاطهم، وخطئهم وإصابتهم، وطاعتهم ومعصيتهم، وتمسكهم بالمنهج وتفريطهم فيه، واعتبارهم بعد هذا كله ستارًا للقدرة، وأداة للمشيئة، وقَدَرًا من قدر الله يحقق به ما يشاء سبحانه.

الانتصار في ميزان الله: ثم ـ في النهاية ـ إشعار الجماعة المسلمة أن ليس لها من أمر النصر شيء، إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره، من خلال جهادها، وأجرها هي على الله، وليس لها من ثمار النصر شيء من أشياء هذه الأرض، ولا لحسابها الخاص يؤتيها الله النصر إذ يشاء، إنما لحساب الأهداف العليا التي يشاؤها الله.

وكذلك الهزيمة، فإنها حين تقع بناء على جريان سنة الله، وفق ما يقع من الجماعة المسلمة من تقصير وتفريط، إنما تقع لتحقيق غايات يقدرها الله بحكمته وعلمه؛ لتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، وتجلية الحقائق، وإقرار القيم، وإقامة الموازين، وجلاء السنن للمستبصرين.

ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي، ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني، في الانتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة، وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس؛ ليكون كل نصر نصرًا لله ولمنهج الله؛ وليكون كل جهد في سبيل الله ومنهج الله، وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية، ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية، إنما الخير أن ترتفع راية الحق لذات الحق، والحق واحد لا يتعدد، إنه منهج الله وحده، ولا حق في هذا الكون غيره، وانتصاره لا يتم حتى يتم أولًا في ميدان النفس البشرية، وفي نظام الحياة الواقعية، وحين تخلص النفس

من حظ ذاتها في ذاتها، ومن مطامعها وشهواتها، ومن أدرانها وأحقادها، ومن قيودها وأصفادها، وحين تفر إلى الله متحررة من هذه الأثقال والأوهاق، وحين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها، لتكل الأمر كله إلى الله، بعد الوفاء بواجبها من الجهد والحركة، وحين تحكم منهج الله في الأمر كله، وتَعُدُّ هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصارها، حين يتم هذا كله يحتسب الانتصار في المعركة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية انتصارًا في ميزان الله، وإلا فهو انتصار الجاهلية على الجاهلية، الذي لا وزن له عند الله ولا قيمة!

ومن ثم كان ذلك الازدواج، وكان ذلك الشمول، في التعقيب على المعركة التي دارت يوم أحد، في ذلك الميدان الفسيح، الذي يعد ميدان القتال جانبًا واحدًا من جوانبه الكثيرة».

[في ظلال القرآن لقطب ١/ ٤٥٧-٤٦٠].

٦ ـ البداية الحقيقية للغزوة:

يقول الشيخ عرجون: «كانت غزوة أُحد امتدادًا لغزوة بدر في الوسائل والمقدمات، والمقاصد والغايات، والوقائع والأحداث، وكانت الفواصل الزمنية بينهما ـ على تقاربها ـ معالم للاتصال الوثيق لتوقعات المستقبل وما يحويه بين جنباته من ترقبات لوصل حاضر المجتمع المسلم في نضاله المرير بماضيه في كفاحه الصبور؛ ليكون هذا الماضي في إطار الإيمان خطًّا متوحد المنازل والمسالك مع حاضر المجتمع في ظل رسالته الخالدة الخاتمة لرسالات السماء في حياة خاصة ممتدة عبر الحياة الإنسانية العامة في كفاح لا ينقطع، ونضال لا تسكن حركاته ولا يهدأ أواره، من أجل إنقاذ الإنسانية المعذبة في الأرض من تورطاتها الوثنية المتهالكة وشركها الطاغي العنيد».

ويقول أيضًا عن أثر بدر الكبرى على المشركين: «وقد كانت غزوة بدر ضربة قاصمة لملأ الفجور الوثني، ترنح منها طواغيته ترنحًا أدار رؤوسهم واستدار بهم كما تستدير الحمر النَّعِرَة، ولكنه بعد صحوة من سكر الهزيمة تماسكوا مستمسكين بعتو كفرهم، وأبوا إلا أن يعودوا إلى مواقفة جند الله؛ ليصلوا ماضي وثنيتهم الجاهلية الباغية بحاضر فجورهم الكفور حتى يكون ماضيهم الخبيث وحاضرهم الفاجر صورة لطغيان مستقبلهم الإلحادي المشرك الكفور؛ ليكون هذا الحاضر الخبيث حلقة اتصال في توحيد الزمن بأحداثه في النضال بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، حتى يكون هذا الماضي حلقات متواصلة في سلسلة الفجور الوثني لحياة الطغيان في لفائف الشرك الملحد، والطغيان الحقود...».

ويؤكد أثر بدر الكبرى بقوله: «وكانت بدر، فكانت نكالًا لهم، ووبالًا عليهم، هُزموا فيها شر هزيمة، حسَّت صناديدهم بالمهندات من السيوف المسلمة، واستأصلت أشراف جاهليتهم قتلًا، وأسرًا،

وتشريدًا، وفرارًا في فجاج الأرض، حتى بلغ فُلُّهم (أي بقيتهم المهزومة) مكة مهزومين أذلاء، يعضون بنان الحسرة والاندحار، وهم في ذهول وحَيْرة، لا يصدقون ما يبصرون بأعينهم؛ لأن الهزيمة لم تكن تمر بخيالهم المظلم بظلمات الغم والحزن الكظيم». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٥٤١-٥٤٢، ٥٤٥].

ويقول أ/ فتح الباب: «ترجع البداية الحقيقية لغزوة أحد إلى انتهاء غزوة بدر بانتصار الإسلام والمزيد من القوة للمسلمين، وباندحار الشرك وذلة قريش، فلقد أذكت مرارة الهزيمة نيران الحقد في نفوس المشركين، وأهاجت مواجدهم وغرائزهم ذكرى قتلاهم، وما أصابهم من نقص في أموالهم، فأخذوا يُعدون للثأر ولفتح الطريق لهم إلى الشام، واستنقاذ مكانة مكة التجارية ومكانتها الدينية بعد أن بسط المسلمون نفوذهم على ساحل البحر الأحمر طريق قريش إلى الشام، وزاد من حقد قريش أن سرية زيد بن حارثة ﷺ قد أخذت تجارتها حين سلوكها سبيل العراق إلى الشام». [القيم الخلقية لفتح الباب ٦٠].